

المحاضرة الثالثة: النقد الإحيائي

لقد عرفت الساحة الأدبية – قديما – جهودا فكرية وأدبية هائلة، مفعمة بأنواع الزخرفة الشكلية من تطريز وتشطير وتصحيف، وغيرها من الألوان الشكلية التي مست جانبا كبيرا من شعر أسلافنا الأولين.

وعلى هذا الأساس أراد كثير من الشعراء في أواخر القرن 20 انقاذ هذا النوع من الكتابة الأدبية، فعادوا به للماضي، محاولين في ذلك إعادة الشعر العربي إلى بهائه القديم، « و هذا الارتداد إلى الماضي والامتداد به إلى الحاضر، كان قد أنقذ الأسلوب الشعري مما كان قد تردى فيه، فأصبح لدينا مستوى من التعبير الأدبي والشعري يضاهي ما انتهى إليه الشعراء العباسيون من تجارب شعرية، تجد فيه رنين الأقدمين وصورتهم وطرائق صياغتهم، كما وعتها أذان شعراء حركة البعث من أمثال البارودي وحافظ وشوقي»⁽¹⁾ ، فكأن العودة إلى روائع الشعر العربي القديم – خاصة في عصوره الزاهية – والنهل منها شكل في الحقيقة حركة بعث جديدة، هي حركة الإحياء.

فقبل التفصيل في البعث عن جذور هذه الحركة، نود الإشارة إلى أن (الإحياء) من الناحية الاصطلاحية هو: العودة بالأدب إلى ما كان عليه حال الازدهار، ونمو بعد حال من التوقف والضعف – لا الموت –⁽²⁾.

بهذا المعنى يستطيع القارئ أن حركة البحث الجديدة أو ما يسمى بالإحيائية - الاتباعية، التقليدية، والكلاسيكية في الثقافة الغربية- حاولت أن تربط بين الماضي والحاضر، أين دخل شعرنا العربي القديم مرحلة الحيوية والنشاط التي تم فيها إحياء أمات الكتب العربية من دواوين للشعراء وكتب قديمة وغيرها، مما أصبح تداولها بين الأجيال أمرا مشروعا.

هذا وإن تناولنا هؤلاء المحافظين أو التقليديين بالدراسة، فإنه ينبغي أن نميز بين نوعين:

هناك فريق اتصل بالتراث اتصالا مباشرا، فعمل على تمجيده وتقديسه، فحاكى الماضي بمجمل قيمه ومعانيه، فاستقبله بتعبيره ومحتواه، لهذا نجدهم قد انقادوا وراءه واستلهموه حق الاستلهام، فوقفوا موقف الالتزام من كل ما صدر، وذلك لسبب وجيه يكمن في أن هؤلاء لا يعرفون علما غير هذا العلم، ولا أصولا غير تلك الأصول، ومقياس ذلك عندهم أن تحصل معارف أسلافها السابقين⁽³⁾.

فكأن السعي وراء استلهام القديم واستثماره في الحاضر هو تسليما وانقيادا برنين الشعر التقليدي، الذي لا يمكن أن نعده عيبا أو خطيئة؛ يستلزم التكفير عنها.

(1) محمد زكي العشماوي، أعلام الأدب العربي الحديث واتجاهاتهم الفنية (الشعر، المسرح، القصة، النقد الأدبي)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، القاهرة، 1995، ص 15.

(2) ينظر: عبد الحكيم راضي، النقد الإحيائي وتجديد الشعر، دار الشايب للنشر، ط1، 1993، ص 11.

(3) ينظر، عبد الحكيم راضي، النقد الإحيائي وتجديد الشعر، ص 11.

أما الفريق الثاني، فيختلف عن الأول في انطلاقه من الماضي من جهة وتجاوزه من جهة ثانية، لذا يسمى بجماعة **الانتقاء والانتقاد**، أي يختارون النماذج وينتقدونها، ولعل هذا الفريق «هو الذي أحسن فهم الماضي وازداد ارتباطا بينايبعه الحية، وأدرك التراث إدراكا سليما يتجاوز الماضي إلى المستقبل والمعلوم إلى المجهول والواقع إلى الممكن وما وراء الممكن»⁽⁴⁾. كلامنا هذا لا يؤول بالانفصال عن التراث، وإنما يظل مبدعا مع مسابرة ومحاكاته للنموذج التقليدي «لأنه في هذه الحالة سيكون حتما قادرا على ألا يجعل للشكل وجودا ثابتا مستقلا قائما بذاته ومثل هذا كليل أن يحول الشعر إلى صناعة بل سيصبح الشكل متفاعلا مع المضمون ومتوحدا معه، وبقدر ما يكون الشاعر بارعا في التوفيق بين الاثنين يكون شاعرا»⁽⁵⁾ بامتياز، يتميز بالفطنة والحنق في المزوجة بين الانتقاء والانتقاد، فلا يقي كل شيء، وإنما يعمل على تمحيصه وفحصه بدقة ومهارة، حتى يخرج في أحسن حلة شعرية.

ومن سار على هذا النهج شعراء كثر، حيث حفلت تجاربهم الشعرية بهذا النمط المتجاوز للتقليد، وذلك حينما عملوا على تخطي حدود الأشكال القديمة وتفجيرها بطاقات جديدة حرروا بها الكتابة الشعرية، فأضاءوا وأناروا الساحة الأدبية لمن خلفهم، ومن هؤلاء نذكر أبي العلاء المعري، المتنبي، أبي نواس، بشار بن برد ... الخ.

أما شوقي فيعد من الشعراء المعاصرين القلائل، الذين نقلوا إلينا أصوات شعوبهم، لذلك كان صوت شعب وعصر، بل مثل أمته حينما فهم التراث واستوعب حاضر أمته وماضيها، وذلك واضح في كثير من قصائده مثلا «كبار حوادث وادي النيل» و«نهج البردة»⁽⁶⁾. وغيرها كذلك نجد حافظ إبراهيم، الذي كان له أثر واضح في التقدم بالمسيرة الشعرية الحديثة؛ لأن الشعر قبل حركة الإحياء التي تزعمها البارودي وتابعها حافظ وشوقي كلاما شعريا قوامه التشطير والتصنيف، وعليه نشأت حركة شعرية ناهضة، حاولت الانتقاد وراء المثال، فانبعثت في الحركة الأدبية حينها رؤى شعرية جديدة تزعمها البارودي، وسار على منواله حافظ وإبراهيم، ربطت الماضي بالحاضر⁽⁷⁾، فيما يسمى بالنهضة الأدبية.

ولما كانت كل نهضة أدبية تصاحبها نهضة مماثلة في دراسة الأدب ونقده، فإن الشيخ حسين المرصفي له الأثر البالغ في الإحياء والبعث للعلوم العربية.

الشيخ حسين المرصفي (كتاب الوسيلة الأدبية للعلوم العربية):

يعد أحد العلماء الأجل الذين استعانوا بهم في تدريس العلوم العربية، فهو رائد النقد العربي الحديث في مصر، إن لم يكن في الأمة العربية، حيث يعتبر كتابه «الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية» هو نقطة تحول في مجال النقد والدراسة الأدبية في القرن 19، هو

(4) محمد زكي العشماوي، أعلام الأدب العربي الحديث واتجاهاتهم الفنية، ص 18.

(5) المرجع نفسه، ص 18.

(6) ينظر، محمد زكي العشماوي، أعلام الأدب العربي الحديث، واتجاهاتهم الفنية، ص 19.

(7) ينظر، المرجع نفسه، ص 36.

مجمل المحاضرات التي كان يلقيها على الطلبة، به فرض نفسه على الحياة الفكرية والثقافية على السواء، حيث خلف بصماته فيمن أتى بعده من نقاد الأدب ودارسيه. من أهم مؤلفاته المعروفة، (دليل المسترشد في فن الإنشاء) في ثلاثة مجلدات يتناول مجموعة من المعارف والعلوم، و(رسالة الكلم الثمان)، وهو كتيب صغير في نحو (66 ص)، أما كتاب «الوسيلة الأدبية» أهم كتبه وأشهرها، صدر في مجلدين: المجلد الأول: صغير الحجم في مئتين وخمس عشرة صفحة، وصدر عن مطبعة المدارس الملكية، وهذا المجلد هو عبارة على تمهيد للأفكار التي يريد أن يتحدث عنها في المجلد الثاني، ولذا تراه اهتم بالقواعد وتعريفات العلوم، وكذلك الحديث عن بعض المسائل النظرية التي تتصل بالأدب، كما اهتم بالتأصيل النظري للمعارف الإنسانية. فكان الحديث في بداية المجلد حديثاً نظرياً عن العلم، ثم يواصل بعد التأصيل النظري تحديد العلوم التي سيتحدث عنها ووضع تعريفات لها كاللغة والصرف والاشتقاق والبيان والبدیع والنظم.

بعدها اهتم بتحديد معنى كلمة «أدب» فهي عنده "أدب القول" و"أدب النفس" قاصداً بذلك الأخلاق وأدب النفس كمعيار شامل للأدب، على أن أهم ما بدأ به المجلد الأول أيضاً حديثه عن العقل، فأفرد له المقصد الأول بعنوان «في العقل وبيان أصناف المعقول»، الذي تناول فيه جوانب هامة عن المنطق والفلسفة، والمقصد الثاني جعله لتعريف اللغة وبيان الداعي لوضع علوم العربية، فتكلم عن فقه اللغة وفلسفة الوضع اللغوي، وحروف المعاني والاختصاص والاشتراك والحقيقة والمجاز والترادف والبيان ... ثم أنهى المجلد بخاتمة عن أحسن الطرق لتحصيل علوم العربية⁽⁸⁾.

أما المجلد الثاني الذي تجاوز السبعمئة صفحة، فقد تحدث فيه عن علوم البلاغة الثلاثة (المعاني، البيان، البديع)، نثراً بين صفاته نظرات ذكية عميقة في النقد الأدبي من جانبيه النظري والتطبيقي، فقد بدأه بما سماه المقصد الثالث في فنون البلاغة، وذلك بحديثه عن (فن البيان)، الذي تناول فيه المجاز والاستعارة والكناية. أما حديثه عن علم المعاني، تناول فيه الجملة وأجزائها، كالجمل الشرطية والذكر والحذف، التقديم، التعريف، التثنية، التكرار، الجمل الإنشائية، والإيجاز والإطناب والمساواة، ثم تحدث عن «فن البديع»، الذي أفرد له صفحات كثيرة، تناول فيها ألوان عدة من البديع، مثل حسن الابتداء والجناس والاستطراد والمقابلة والتطريز والترصيع، والتجديد ... وغيرها، ثم تحدث عن «فن العروض والقافية»، وبعدها تناول بالحديث ما سماه «المقصد الرابع في الكتابة» حديثاً مستفيضاً عن الإملاء. وبعدها تناول ما سماه بـ«كتابة الإنشاء أو صناعة الترسل».

وهنا برزت موهبته وقدرته على تذوق النصوص الأدبية، وتفسيرها وتحليل قيمها الفنية والجمالية بأسلوب علمي رصين، وفحص وتحقيق وتأمل عميق، ضفرت به إلى نتائج

(8) ينظر، حسين المرصفي، الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية، ج1، تحقيق وتقديم، عبد العزيز الدسوقي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، 1402 / 1982، ص 14، 20.

محددة وواضحة، لذا تراه قد تناول عددا من القضايا ربما أثرت لأول مرة في العصر الحديث، كالحديث عن اللهجات العامية بطريقة موضوعية، ودراسة علوم جديدة مثل فقه اللغة وإرساء قواعد المنهج التاريخي في الدرس الأدبي، ومن خلال هذا المنهج قسم الشعراء إلى ثلاث طبقات (الجاهلين والمسلمين من المهلهل إلى بشار بن برد وطبقة المحدثين (أبي نواس إلى قبيل القاضي الفاضل) وطبقة الشعراء الذين غلب عليهم استعمال النكات والإفراط في مراعاة البديع (من القاضي الفاضل إلى اليوم)⁽⁹⁾.

هذا وللمرصفي جملة من الآراء النقدية، من بينها ما ذكره الدسوقي في كتابه «في الأدب الحديث»، أنه ليس كل كلام تحققت فيه أركان قسم من أقسام فنون البلاغة يعد بليغا، إذ يورد المرصفي نماذج من الكلام البليغ، وبين مواطن البلاغة فيها، ولم يقتصر في أمثله على عصر، معتمدا في ذلك على ذوقه، وتمرسه بأساليب العرب الأقدمين وحفظه للجيد من كلامهم، مثلما يؤهله ذوقه المرهف لمعرفة مواطن الحسن في الكلام، إذ لا يجعل من النحو والبلاغة غاية في لنقد وإنما وسيلة لمعرفة الصور وجلائها، وإيضاح مكانم البلاغة في القول، ولهذا تراه جعل مقياس الجودة في صحة المعنى و شرفه...⁽¹⁰⁾.

(9) ينظر، حسين المرصفي، الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية؛ ص 22- 25.

(10) ينظر، عمر الدسوقي، في الأدب الحديث، ص 215- 215.